

العيش المشترك بين المعقول و اللامعقول بول فايربند أنموذجاً شادلي هوارى

houari.chadli@saida-univ.dz

تاريخ الإرسال: 27 / 04 / 2023 ؛ تاريخ القبول: 02 / 06 / 2023

The Coexistence Between the Reasonable and the Unreasonable

Abstract:

Science has made noticeable changes to the lives of peoples and societies, and this does not justify its denial for other cognitive forms. On the contrary, the progress of science occurs coexistence between it and the other knowledge that is described as irrational. And among the calls that called for the necessity of this interaction between the patterns of human thought and openness more on the unreasonable in the field of scientific research is what Paul Feyerabend presented in his chaotic philosophy of ideas that reject very thing that is dogmatic and closed, through which he raises against rationality whose owners believe is a doctrine that does not change. He considered it a reason to exclude many knowledge by virtue of that it is not rational. The truth and the multidimensional values can not be limited to a specific direction or at a group in itself. The world today is sects, parties, nations, and each of them wants a specific rational imposition on other groups and sects.

The Rationality cannot be confined to a limited speech claiming to be science or certain knowledge that claims to excel from the rest of the other knowledge. It is merely a tradition whose significance differs from one direction to another that makes their owners issue different rulings, which leads to consider some doctrines correct and other wrong, every

scientific or intellectual orientation claims a specific rationality. So, rationality must be open by its nature on permanent dialogue with reality, life and ideas in a dynamic movement of free exchange that opens the field of dialogue with the unreasonable.

Keywords: rationality - pluralism - irrational - anarchism. Coexistence

ملخص: أحدث العلم تغيرات ملحوظة على حياة الشعوب والمجتمعات ولا يبرر ذلك نفيه لأشكال معرفية أخرى، بل على العكس من ذلك فتقدم العلم يحدث العيش المشترك بينه وبين و المعارف الأخرى التي توصف باللاعقلية، ومن بين الصيحات التي نادت بضرورة هذا التفاعل بين أنماط الفكر الإنساني والتفتح أكثر على اللامعقول في مجال البحث العلمي ما طرحه (بول فايربند) في فلسفته الفوضوية من أفكار تنبذ كل ما هو ذو غماتي مغلق، رافع من خلالها ضد العقلانية التي يعتقد أصحابها أنها عقيدة لا تتغير، حيث اعتبرها سبباً في إقصاء الكثير من المعارف بحكم أنها ليست عقلانية، فالحقيقة والقيم متعددة الأبعاد لا يمكن حصرها في اتجاه معين أو عند جماعة بذاتها، فالعالم اليوم طوائف وأحزاب وأمم وكل منها يريد فرض عقلانية معينة على الجماعات والطوائف الأخرى.

إن العقلانية لا يمكنها أن تنحصر في خطاب محدود يدعي أنه العلم ولا في معرفة معينة تدعي لنفسها التفوق عن باقي المعارف الأخرى، فهي مجرد تقليد تختلف دلالاته من اتجاه إلى آخر تجعل أصحابها يصدرن أحكاماً متباينة مما يؤدي إلى اعتبار بعض المذاهب صحيحة و أخرى خاطئة، فكل توجه علمي أو فكري يدعي عقلانية معينة، لذا يجب على العقلانية أن تكون متفتحة بطبيعتها على الحوار الدائم مع الواقع والحياة والأفكار في حركة ديناميكية من التبادل الحر تفتح مجال التحاور مع اللامعقول.

الكلمات المفتاحية: العقلانية-التعددية-اللامعقول-الفوضوية-المعايشة
مقدمة

إن العقلانية بمختلف أنواعها وضعت لنفسها دروبا يسلكها التفكير بنسقية صارمة ومطلقة، كانت سبباً في إزاحة أساليب أخرى من التفكير، لكن بحلول القرن العشرين ومع ظهور نظريات علمية جديدة، تبين قصور فعالية هذه العقلانيات في بناء العلم بسبب إقصاءها لكثير من التجارب الإنسانية بحكم أنها غير عقلانية رغم أهميتها، فتراجعت الأنساق ذات الأبعاد المنطقية والصرامة المنهجية وانفتح البحث أكثر على دور الحدس والخيال وتمكين جميع التقاليد الأخرى من التعايش قصد إثراء المعرفة العلمية وتحريرها من هيمنة سلطة العقل التي حصرت الخطاب المعرفي وجعلته الإيديولوجية العلمية، ومن بين المحاولات التي ساهمت في ظهور هذا التوجه الجديد في المعرفة القائم على تحرير الفكر من قيود المذهبية والعوائق الميثودولوجية والنسقية الإقصائية، ما طرحه (فايربند) في فلسفته الفوضوية، القائمة على تعايش جميع التقاليد المتواجدة في المجتمع، مبيناً دور اللامعقول وأهميته في تنويع مصادر المعرفة، فجميع التقاليد الإنسانية التي تمارسها المجتمعات بمختلف ميزتها ومستوياتها تلعب دور هام في تقدم المعرفة، فالدين والفن و الأسطورة، كلها تقاليد لا تقل أهمية عن العلم، لذلك فهو يدعو إلى التعايش فيما بينها.

إن العقلانية الفوضوية التي يدعو لها (فايربند) لا تنحصر في خطاب العلم المحدود فهي ترفض بشدة تنصيب السلطة المعرفية للعقلانية العلمية على حساب المعارف الإنسانية الأخرى بل تتعداه للتفاعل وتعايش مع وقائع الحياة المتنوعة وتتجاوز مع خطابات وآراء مختلفة لا تلتزم بقواعد المنهج و لا المنطق، فالعلم المعاصر في نظره أصبح أكثر توجهاً نحو الدراسات المعمقة التي لا تكتفي بالنظر إلى مظاهر الأشياء بل تنغمس في جواهرها الميتافيزيقية، فهل العلم يمثل أرقى أشكال المعرفة الإنسانية؟ ما هي القيمة المعرفية لمختلف النشاطات الإنسانية كالدين والفن مثلاً ؟ وهل بإمكان العلم التطرق إلى قضايا اللامعقول والتعايش معها؟ هذه التساؤلات كلها سوف نحاول الإجابة عنها بما يقدمه (فايربند) من أطروحات في الفوضوية واللامعقول.

محدودية العلم والتعدد المعرفي:

شهد القرن الواحد والعشرين تحولات عميقة على جميع المستويات العلمية والفلسفية أدت إلى إعادة النظر في قيمة العلم ومدى قدرته على التعامل مع مستجدات العصر وتحدياته خاصة مع ظهور النظرية النسبية و نظرية الكوانتم التي أدت إلى تراجع فكرة اليقين العلمي، فلم يعد العلم ذلك النموذج الذي يقتدي به، لذا أصبح من الضروري فتح المجال أمام جميع التقاليد والأنشطة من المشاركة في عملية النمو والتطور، بحيث أصبح لازماً عن العلم أن يتعايش مع مختلف التقاليد الاجتماعية، لذلك رفض (فايربند) الرأي القائل بتفوق العلم عن باقي التقاليد الإنسانية الأخرى، فهو لا يمثل أرقى أشكال المعرفة الإنسانية ولا يمكنه أن يشكل نموذجاً للمعقولية تسعى أنصارها إلى محاولة إقصاء كل نوع من المعرفة تخالف نسقية العلم، إن المعرفة العلمية هي مجرد تقليد من بين تقاليد متعددة، فالعلم هو نشاط إنساني مرتبط بالفاعليات ونشاطات غير علمية يتفاعل معها ويستفيد منها، فالعلم لا يمتلك السلطة بل هو معرض للنقد والتمحيص والخطأ أحياناً، فلا بد أن يكون أكثر تفتحاً على العالم، يقول (فايربند): (فالواقع أن للعلم نتائج تحسب لأفضاله فقط لو أن العلم وحده هو الذي أحرز هذه النتائج بدون أية مساعدة خارجية، بيد أننا إذا ألقينا بنظرة فاحصة على تاريخ العلم لتبين لنا أن من الصعوبة بمكان أن يتوصل العلم إلى تلك النتائج). (هاكينج، 1996، صفحة 237)

يشيد (فايربند) بدور المعارف الأخرى غير العلمية التي كان لها الفضل في ظهور الكثير من النظريات العلمية، فنظرية (كوبرنيك) استندت إلى أفكار (فيثاغورس) المتصوفة الفيثاغوري وضمها إلى تصوره الفلكي مخترقاً القواعد العقلانية السائدة ومثلما انتفع علم الفلك من المذهب الفيثاغوري، نجد أن الميكانيكا والبصريات تدينان كثيراً لحرفة الصناعة، ويدين الطب للقابلات والعرافين وبائعى الأدوية المتجولين). (بول، 2000، صفحة 92)

يتضح أن (فايربند) يستقي أمثله لتدعيم أفكاره من تاريخ العلم، وهو في ذلك يريد أن يبين فكرة ذات أهمية بالغة مفادها عدم الحكم المسبق

على أي شكل من أشكال المعرفة دون معرفة قيمتها، فالقول بمعرفة أنها ليست علمية هو حكم قائم على التقليد السائد والفحص السطحي، هكذا كتب (فايربند) متحدثاً عن (لاكاتوس): (بعد أن أنهى وأتم إعادة بناء العلم الحديث أخذ يسخر نتائج هذا العلم ضد ميادين المعرفة الأخرى وكأنه أمر ثابت كون العلم الحديث أرقى من السحر، أو من العلم الأرسطي وأن نتائجه ليست وهمية، إننا لا نجد فيه على الرغم مما في هذه الأمور من إشكالات أدنى أثر لمناقشة هذا الموضوع، إن ما أسماه إعادة البناء العقلي لتغيير الحكمة العلمية الأساسية من قبيل المكتسبات النهائية وذلك دون أن يبرهن على أن هذه الحكمة أرقى من الحكمة الأساسية التي يمتلكها الساحرات والسحرة.) (شالمرز، 1991، صفحة 135)

يؤكد (فايربند) على ضرورة وأهمية المعارف غير العلمية فهي تمثل إنتاج إنساني قدم الكثير من الخدمات طلية مراحل تاريخ البشرية، (فلقد تمكنت المجتمعات القديمة من التعامل مع المواقف الصعبة والدرجة بكل حكمة وباستعمال طرق تلقائية لا تستند لمنهجية ولا لمنطق معين، فلقد تمكن الإنسان القديم إنسان العصر الحجري من التعامل مع الطبيعة واستغلها لصالحه مستعملاً قدراته الذكائية التي لا تقل أهمية عن ذكاء الإنسان المعاصر) (feyrabend, 2014, p. 69)

إن تفوق العلم عن باقي المعارف الأخرى مرده تلك المعايير التي استند إليها كالموضوعية والعقلانية والمنهج والصدق واليقين التي جعلت منه سلطاناً يترفع على عرش المعرفة، لكن وبالرجوع إلى تاريخ العلم يتبين لنا أن هذه المرتبة المرموقة التي تحصل عليها العلم لا تعود لنتائجه ولا للمنهج المتبع، فتاريخ العلم يشهد أن فكرة وجود منهج علمي ثابت ينظم عملية اكتساب المعرفة العلمية الصحيحة لا يوجد ما يبرره، فالكثير من النظريات العلمية حققت تقدماً في العلم لأنها تجاوزت وانتهكت المناهج العلمية الثابتة والمتعارف عليها.

يؤكد (فايربند) (أن المعرفة العلمية استفادت من الدعاية التي تلقفتها من طرف مناصريها والتي سمحت لها من السيطرة على الساحة المعرفية دون منافس لذلك فهو يدعو إلى إتاحة الفرصة للمعارف الأخرى غير

العلمية من دخول مجال المنافسة من خلال تسليط الضوء عليها و تمكينها من الدعاية نفسها التي أعطيت للمعرفة العلمية، حينها سوف نتفاجيء أن هذه المعارف سوف تقدم حلول مناسبة أفضل من تلك التي تقدمها المعرفة العلمية ولذا يتعين علينا أن نبحث عن ذلك (فايربند، 2000، صفحة 121).

إن المجتمع الإنساني يسخر بأنشطة وتقاليد متعددة ولا يمكن اختصار نشاطه فيما يقوم به العلماء فقط، إن التعايش بين العلم و باقي التقاليد الاجتماعية الأخرى يساهم في رفع مستوى الأداء المعرفي منة خلال التنوع في مصادرها دون إقصاء أو تهميش، فدور العلم داخل المجتمع يمثل جزء من النسق العام للنسيج الاجتماعي المختلف والقول بتميز العلم عن باقي هذه الأنشطة بسبب الحجج القطعية التي جعلته ينال تأييداً عن باقي المعارف الأخرى هو مجرد وهم، بل ليس للعلم في نظر (فايربند) أي سمة تجعله أسمى من السحر والشعوذة أو التنجيم، فالعلم ليس إلا تقليد من بين التقاليد الأخرى الموجودة في المجتمع.

يوضح (فايربند) من خلال هذا الطرح المتميز أن الالتزام بمعايير عقلية مسبقة على المستوى النظري لا توصلنا للحقيقة وإنما كل شيء يتحدد بالممارسة التي قد تكشف عن أسلوب بحث مغاير للأساليب المتعارف عليه داخل الأنساق العلمية النظرية، والممارسة تستدعي تعايش بين جميع جوانب المعرفة دون إقصاء ولا تهميش، لذا فهو يدعو للتفتح على مختلف الممارسات الإنسانية بما فيها تلك التي استعملت من طرف المجتمعات البدائية، إذ يقول: (إن فكرة المنهج الثابت أو النظرية العقلانية الثابتة تقوم على رؤية ساذجة جداً للإنسان وما يحيط به في المجتمع، ولهؤلاء الذين ينظرون إلى المادة الغنية التي يقدمها التاريخ، والذين لا ينوون إصابتها بالفقر لإرضاء غرائزهم الأقل، وبحثهم عن الأمان الثقافي الذهني في شكل الوضوح والدقة والموضوعية والحقيقة سوف يتضح أن هناك مبدأً واحداً يمكن الدفاع عنه تحت كل الظروف وفي كل مراحل التطور البشري وهو مبدأ أي شيء يصلح.) (فايربند، ضد المنهج، 2005، الصفحات 39-40)

يلخص هذا المبدأ فلسفة (فايربند) الفوضوية القائمة على رفض التوجه السلطوي في العلم القائم على الإقصاء مؤكداً على ضرورة الاهتمام بالأنشطة التي يقوم بها الأفراد داخل المجتمع، فلا يمكن تقديس العلم وجعله ديناً يحكم على من يخالف أحكامه بالكفر و الزندقة بل هو نظام عقلائي وجب أن ينمو ويزدهر وسط الأنظمة المعرفية الأخرى، وإذا كان العلم الذي ساد في القرنين السابع والثامن عشر قد اعتبر أداة للتنوير والتحرر، فمن غير الملزم أن يظل دائماً أداة للتحرر والتنوير، فالتمييز الذي أقامته الإبيستمولوجية السابقة على النتائج الباهرة للعلم لم تنجح في تأسيس معرفة علمية بالطريقة اللازمة، يؤكد (فايربند) قائلاً: (إن أمثلة كوبرنيكوس، النظرية الذرية، الفودو* والطب الصيني توضح أنه حتى أكثر النظريات تقدماً وأماناً ليست آمنة ويمكن تعديلها أو استبعادها بمساعدة الآراء التي وضعها غرور الجهل بالفعل في سلة مهملات التاريخ، بهذه الطريقة قد تصبح معرفة اليوم حكاية خيالية غدا، وقد تتحول أكثر الأساطير إثارة للضحك إلى أقوى جزء من العلم.) (فايربند، ضد المنهج، 2005، الصفحات 75-76)

يؤكد (فايربند) على عدم وجود حجة قاطعة نهائية توضح أفضلية العلم عن باقي المعارف الأخرى، (لأن العلم لا يقبل المقايسة مع هذه المعارف بسبب المكانة التي اكتسبها بفضل الدعاية وإذا كان العلم يقبل أن يقارن مع أشكال المعرفة الأخرى، فهذا يدفعنا للبحث عن طبيعة العلم وأهدافه ومناهجه والبحث كذلك عن طبيعة وأحداث المناهج الأخرى، ولكي يتحقق ذلك نلجأ إلى الدراسات التاريخية للبحث في الآثار والوثائق والرسائل والمصنفات والتقارير.) (شالمرز، 1991، صفحة 141)

يتبين لنا من خلال هذا القول أن (فايربند) يشيد بأهمية الدراسات التاريخية باعتبارها شاهد على الممارسات العلمية التي لم تنتقد بعقلانية معينة يعتقد أصحابها أنها العلم، فهذا التاريخ يؤكد على أن الكثير من المعارف أثبتت جدارتها وأصبحت تمثل بديلاً للمعرفة العلمية الرسمية،

* - منهج قائم على التوفيق بين مجموعة من العبادات

فلقد عجز الطب عن حل الكثير من الأمراض التي أصبحت تهدد البشرية في حين تمكن الطب البديل من إيجاد حلول لها إذ يقول: (يكون لدى بعض أشكال الطب القبلي البدائي وسائل أفضل لتشخيص علاج المرض من الطب العلمي المعاصر). (بول، 2000، صفحة 16)

إن هذه البدائل التي يقدمها ليس معناه رفضه للعلم بل فتح المجال أمام تعايش أنواع المعارف وتعددتها لكي يخرج البحث والباحثين من ضيق المنهج الرسمي الذي يدعي العلم والعقلانية، إلى سعة التعددية المنهجية التي يعتبرها (فايربند) الوسيلة الوحيدة لتقدم العلم لأنها ترفض بشدة تنصيب السلطة المعرفية لعقلانية محددة أو منهج معين، فالتقدم العلمي لا يتحقق إلا من خلال إطلاق الطاقات الإبداعية وخلق الابتكار على جميع المستويات والأنشطة الاجتماعية سواء تعلق الأمر بالمعتقدات الدينية أو حتى الفنية منها وليس التشديد على إتباع منهج واحد صارم أو اقتفاء خطى نظام معرفي محدد دون سواء يدعي أصحابه اليقين المطلق، (إن العلم هو نشاط حضاري كباقي النشاطات الأخرى ولا يمكن اعتباره حكماً على باقي النشاطات الأخرى وإنما هو في حد ذاته تقليد). (فايربند، العلم في المجتمع الحر، 2000، صفحة 43)

يريد (فايربند) أن يغير النظرة المقدسة للعلم التي أعطته سلطة متعالية عن باقي الأنشطة الإنسانية وجعلت منه المعيار الوحيد لتحديد مسار المعرفة والحكم عليها، بينما الأصل في تعدد معارفنا وتنوعها، فما هي النتائج الإيجابية المستخلصة من فكرة التعايش؟

التعايش المعرفي ودوره في بناء العلم:

لم يعد العلم في نظر (فايربند) قادراً على تفسير جميع الظواهر وهذا راجع إلى تلك النسقية الصارمة التي تتخذ من المنهج والمنطق وسيلة للتعامل مع الظواهر، بل إن فهم الظواهر فهماً واضحاً يستدعي الاستعانة ببعض المناهج غير المعروفة في الوسط العلمي، والحقيقة أن العلماء المعاصرين في شتى التخصصات قد انتبهوا لنجاعة التعددية في فك ألغاز الطبيعة، ولقد أكد عالم الاجتماع المعاصر (كلوزميتز) على ضرورة التعدد المنهجي حيث تتعايش وتتفاعل مجموعة من الأنظمة العلمية في دراسة ظاهرة ما أو معالجة

إشكال معين، كما تبنت عالمة الثقافة البريطانية (سادي بلانت) هذه الطريقة وطورت فكره مبرزة أهمية التعددية في الجمع بين المنظومات المختلفة سواء اقتصادية، اجتماعية، عضوية، بيئية التي تتولى تنظيماً متداخلاً تلقائياً في دراسة الظواهر (خشبة، صفحة 42)

إن التقدم العلمي يفرض على العلماء نوع من التواضع في التعامل مع المعارف التي توصف باللاعلمية لأنها قد تخفي حقائق عجز العلم الرسمي عن الكشف عنها، فالنظرة التسلطية التي تفرضها العقلانية العلمية تؤدي إلى إهمال أرقى صيغ العقل حينما يبحث عن جوهر الوجدان المعرفي المتعددة، فيمزج الثقافي مع العلمي ومنتقل من أحادية النظرة إلى حرية الأفكار وتعددتها، وهذا الأمر سوف يغير من طبيعة الإدراك للمواضيع والظواهر، فيساعدنا على التفتح أكثر على نظريات ومعارف أخرى غير معروفة في أوساط العلماء، فنرى النظريات لا النظرية والمنهجيات لا المنهج الواحد، والتعايش بدل الإنفراد.

لا يمكن عزل المعرفة الإنسانية في شكل فروض وإنما يجب النظر إليها باتباع برامج متعددة متعايشة مع بعضها البعض تجعل مفهوم الحقيقة يتغير ويتحول من الثابت المطلق إلى النسبي المتغير، فتعدد صور الحقيقة وتداخلها تقدم لنا صورة شاملة عن هذا العلم ومن منافذ متعددة، فالعلم صار اليوم ابن الواقع المتعدد الذي تتداخل فيه جميع مكونات المجتمع النفسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية متعايشة معاً.

لم يعد العلم العقلاني القائم على المنطق والمنهج هو الواحد القادر على إعطاء تفسير شامل للظواهر بل فتح مجال أما العديد من التقاليد المحسوبة على اللامعقول في إعطاء رأيها وتقديم حلول لقضايا أصبحت مستعصية عن الحل، يقول (فايرابند): (إن العقلانية لا يمكنها أن تكون عامة، واللاعقلانية لا يمكن إقصائها). (feyerabend, 1979, p.

196)

أمام عجز العلم في تقديم تفسيرات مناسبة للكثير من الظواهر قد تؤدي التفسيرات غير العلمية والمنسوبة لعالم اللامعقول من تقديم نتائج مرغوبة لم تتحقق في مجال المعقولات، يقول (فايرابند): (فنحن نعلم أن الطب العشيري البدائي والطب الشعبي، والأشكال التقليدية للطب في

الصين التي لا تزال قريبة الصلة برؤية الحس المشترك والإنسان والطبيعة، لديها في الغالب وسائل أفضل لتشخيص والعلاج من الطب العلمي كما أننا نعلم أيضاً أن الأشكال البدائية للحياة، قد ساهمت في حل مشكلات الوجود الإنساني التي تعد بعيدة المنال بالنسبة للمعالجة العقلانية) (فايربند، العلم في المجتمع الحر، 2000، صفحة 79)

لا يمكن اعتبار الممارسات العقلية حكماً على كل التقاليد التي يمارسها الإنسان في حياته لأن متطلبات هذه الحياة تستدعي التعامل مع جميع جوانبها التي تفلت من قبضة الحكم العقلي (فلا يمكن السماح للعقل بأن يكون موضوعاً شاملاً ويجب التغاضي عنه أحياناً أو حتى حذفه لصالح الكيانات الأخرى، وليست هناك قاعدة واحدة تظل صالحة تحت كل الظروف أو أي كيان يتم اللجوء إليه دائماً). (فايربند، ضد المنهج، 2005، صفحة 270) أو كما يقول الدكتور (يحي الرخاوي): (ليس مجرد النظر العقلي بل صار حقل العلم هو فعل إنساني كلي يتميز أساساً بفعالية نوع من التفكير يتصف بالتسلسل المنظم من الملاحظة إلى الفرض إلى التحقق إلى التكذيب، إلى فرض التوسع إلى إعادة صياغة الفرض، وهكذا باستمرار، وكثيراً ما يسمى فعل العلم باسم التفكير العلمي وقد قصدت من استعمال كلمة فعل هنا قصداً حتى أنفي أنها عملية تنظيرية معقانة فقط) (الرخاوي، 1997، صفحة 13)

يرى (فايربند) أن وفرة النظريات وتعايشها مع بعض ضروري لتقديم العلم حتى ولو كانت هذه النظريات غير متسقة وغير منطقية، فالنظرية عند (فايربند) لا تحمل معالم العلمية دائماً بل هي عامة تشمل كل معالم الحياة، إذ يقول: (عندما أتحدث عن النظريات فأنا أعني أنها تتضمن الأساطير والأفكار السياسية والمذاهب الدينية كما أرى أن تعبير وجهة نظر ينطبق على الأقل على بعض جوانب كل ما هو موجود). (فايربند، ثلاث محاورات في المعرفة، صفحة 22)

من خلال هذا المفهوم الذي وضعه (فايربند) للنظرية رفض التمييز الذي أقامه الإستمولوجين بين العلم واللاعلم واعتبر هذا التمييز مزيف ولا يبيّن العلم، إذ يقول: "إن العلم لا يستند إلى منهج معين بذاته، هذه القناعة أوصلتنا إلى نتيجة معينة هو أن التمييز بين العلم واللاعلم ليس

مزيف فقط بل يشكل عائق أمام تقدم المعرفة، فإذا أردنا أن نفهم الطبيعة وأن نتحكم في بيئتنا ومحيطنا الفيزيائي ينبغي الاستناد إلى كل الأفكار وكل المناهج، وليس إلى نوع معين فقط). (feyerabend، 1979، صفحة 346)

من هنا بدأت تتراجع الأطروحات القائلة بفكرة النظرية الموضوعية الصارمة، وانفتح العلم على المحيط العام وبدأ ينمو داخل بنية تعترف بالتعدد ويتداخل الفيزيقي بالميتافيزيقي، والمعقول مع اللامعقول، وصار العلم يعترف ضمن حدود التجريبية المادية الخالصة بمبادئ الإيهام والالتباس إلى جانب التعدد والتداخل إزاء التنوع العلائقي الهائل في بنية المادة نفسها، فاتجه البحث في خصائص غير مادية تنتمي إلى عالم النفس والروح، تتعايش مع العالم المادي تؤثر فيه وتحدد مساره، فالقوانين الفيزيائية ذاتها مطروحة الآن في صورتها الرياضية سواء الفيزياء النيوتونية أو نظرية النسبية أو ميكانيكا الكم تقبل جميعاً التطبيق على باقي مستويات الوجود المادي والنفسي وحتى الاجتماعي، (فتصوراتنا عن القواعد والقوانين التي تحكم العقل الإنساني في الاستقبال والتحليل واتخاذ القرار، والتي هي غائية في طبيعتها تنطبق أيضاً ولكن بصورة كيفية على المواد الحية وبصورة كمية على المواد غير الحية وهذا ينتج في النهاية مجموعة واحدة من القوانين الطبيعية تنطبق على كافة مستويات الطبيعة ولكنها ليست مماثلة عند التطبيق، وإنما يكون تطبيقها مرتبطاً بمستوى الوجود على سلم التطور... أي أن تصورنا على قوانين الطبيعة هو أن قوانين الطبيعة الموحدة تقبل التطبيق على الجانب العقلي أو النفسي للوجود وكذلك هي ذاتها تقبل التطبيق على الجانب المادي أو الفيزيائي للوجود، فهي قوانين لها شقين تطبيقين في النفس الوقت عقلي- مادي أو نفسي – فيزيائي أو كما تسمى في الأدبيات (القوانين السيكوفيزيائية) (Psycho-physical laws).

(زيد، 2005، صفحة 24)

أصبح العلم الآن أكثر تفتحاً عن مجالات الحياة المتعددة بما فيه جوانب اللامعقول والتي لا يمكن إخضاعها لقواعد المنطق، يقول (فليب فرانك"): (إن فهم مبادئ العلم سواء الفيزياء والبيولوجيا لا يتطلب

فحسب فهماً للأدلة المنطقية بل وكذلك فهماً للقوانين النفسية والاجتماعية، وإن شئنا الإيجاز نحن في حاجة إلى إكمال علم الطبيعة بعلم الإنسان.) (قنصوة، 1998، صفحة 169)

يصر (فايربند) على عدم التمسك بالطرق الصارمة ويدعو إلى إيجاد بدائل متنوعة ولو كانت تسير في اتجاه معاكس للمناهج العلمية، لأن ذلك يفيد العلم وينوع من مصادره فالتعايش مع البدائل توسع من مجال البحث العلمي وتجعله يقتحم الكثير من المواضيع التي كان يعتقد أنها خارج الدراسة العلمية (فباستخدام البدائل فقط عندما تقدم التقنيات بالفعل أدلة سحب الثقة من النظرية المتشددة عندما تضع العربية أمام الحصان، كذلك بعض أهم الخصائص العامة لأي نظرية يتم الوصول إليها بالتضاد والتقابل وليس بالتحليل والعالم الذي يريد زيادة المحتوى الإمبريقي للآراء التي يقدمها والذي يريد فهمها بشكل واضح بقدر الإمكان، يجب أن يقدم لذلك آراء أخرى: يجب أن يطبق منهج التعددية، يجب أن يقارن الأفكار مع أفكار أخرى بدلاً من مقارنتها مع الخبرات والتجارب) (فايربند، ضد المنهج، 2005، صفحة 44)

فالتعددية المنهجية هي السبيل الوحيد والأمثل في نظر (فايربند) لتحقيق التقدم العلمي والمعرفي وتفتح مجال الخيال والإبداع وتضع الباحث أمام خيارات متعددة، فالعقل الفعال المتفتح يناقش ويعالج قضايا متشعبة وابتاع أساليب بحث متنوعة تساهم في تقدم العلم.

تسمح التعددية بطرح بدائل ووجهات نظر مختلفة تعمل على مقارنة الأفكار ببعضها البعض حتى تلك التي تم رفضها من قبل، مما يتيح التنافس بينها لصالح العلم والمعرفة، يصرح (فايربند): (إن العقلانية التي انشدها ليس في الوصول إلى نظرية مثالية إنما بالأحرى زيادة محيط البدائل واستخدام كل النظريات حتى تلك التي تراجعت منذ زمن بعيد وأصبحت في طي النسيان لأنها ربما يكون بها عنصر يوتوبي يفيد معارفنا) (عوض، 2004، صفحة 99)

الإيديولوجية والعلم:

يرى (فايربند) أن العلم تحول إلى إيديولوجية بعد أن نصب نفسه حكماً على باقي التقاليد الأخرى، وأراد أن يهيمن على كل الأيديولوجيات

الموجودة في المجتمع، (فمنذ انطلاق النهضة الأوروبية دخل العلم مضمار المنافسة مع باقي الأيديولوجيات من حيث الأهمية والهيمنة على المجتمع خاصة الدين الذي كان جزءاً من البناء الأساسي له، وبما أن المجتمع والدولة لم يعلننا بعد أفضلية العلم على باقي الإيديولوجيات في ذلك الحين، نرى العلم في هذه المرحلة يتبوء نزعة وقوة تحريرية، يؤكد فايربند أن هذه النزعة التحريرية للعلم ليس بفضل عثوره على الحقيقة، ولا بفضل منهجه الصحيح المطلق، ولكن بفضل دوره الريادي في هذه المرحلة بالحد من تأثير وهيمنة الإيديولوجيات الأخرى وعلى رأسها إيديولوجية الدين.) (كريم، 2012، الصفحات 409-410)

فرض العلم إيدلوجيته على باقي الأيديولوجيات الأخرى، وانتقلت قداسة الدين إلى قداسة العلم، وتخلّى عن مهمته الأساسية في الكشف عن الحقيقة وتحرير الإنسان من الأوهام، لقد أصبح العلم يمثل الجزء الهام من البنية الاجتماعية وتلاشت قوى التقاليد الأخرى التي كان لها دور مهم في تماسك النسيج الاجتماعي، لقد أصبح العلم وبعد هذا الانتصار حقيقة ثابتة تفسر الوجود وفق نظام معين، ويقوم بإقصاء كل محاولات التفسير المخالفة له، إن العلم أنتج نظاماً مغلقاً يفرض أرائه ويعتبرها حقائق لا تقبل النقد ولا ينتابها الشك بذلك صار العلم مجرد إيديولوجية، إن الدول الحديثة في نظر (فايربند) تتظاهر بالديمقراطية وتتغنى بالحرية لكن الممارسة تبين أن البرامج السياسية الحكومية في مختلف المجالات تحمل تأثيرات دينية وخرافات أسطورية وأحكام مسبقة، هذه التأثيرات تسربت إلى منظومة النظام الحاكم بواسطة الأفكار التي تتبناها الأحزاب والجمعيات ذات الطابع السياسي، فأى نظرية تكتسب نجاحاً بفضل ولائها للسلطة، وبالتالي يبدأ الإقصاء المتطرف يرفض التعايش مع تقاليد مخالفة لتلك التي تتبناها السلطة. ففي مجال التربية والتعليم مثلاً يبين (فايربند) أن مدارسنا تدرس مبادئ الدين باعتبارها معطيات تاريخية لا غير وليس باعتبارها عناصر تحمل حقيقة معينة، (فالمواد العلمية إجبارية بينما التربية الدينية تترك لاختيار الأولياء في إتباع منهج ديني معين دون تدخل من الدولة، فيمكن أن نعلم أولادنا التدين بالبروستنتاندية أو بالأيمان اليهودي لكن الأمر في دراسة

العلوم لا يخضع إرادة الأولياء، فالطفل مجبر على تعلم الفيزياء و علم الفلك والتاريخ ولا يمكنه تعلم السحر والتنجيم ودراسة الأساطير) (feyerabend, 1979, p. 339)

لقد انتهكت كرامة الإنسان باسم العلم وتغير مساره وعوض أن يقدم خدمات للإنسانية أصبح يهدد كيانه نتيجة العنصرية و التطرف التي تمارس من طرف بعض الإيديولوجيات. كل هذه الاعتبارات دفعت (فايرابند) للتساؤل عن مستقبل العلم في علاقته مع السياسة مؤكداً أن الدول الحديثة في أوروبا تمكنت من الفصل بين الدين والدولة، (إلا أن الدولة والعلم لا يزالان يعملان عن كثب بحيث أصبحت الدولة تنفق مبالغ طائلة من أجل تجسيد مشاريع علمية دون الحصول على أية فائدة من ازدهار العلم... حتى العلاقات الإنسانية أصبحت تخضع للدراسة العلمية الصارمة كما هو الشأن في برامج التربية واقتراحات تهذيب السجون إلى جانب التجهيزات والتدريبات العسكرية... الخ (feyerabend, 1979, p. 339)

لقد عانت البشرية كثيراً من تدخل رجال السياسة في العلم حيث استغل البحث العلمي لأغراض حربية أدت إلى نشوب حربين عالميتين ذهب ضحيتها ملايين البشر، إن هدف الرجل السياسي هو تحقيق مكتسبات سياسية ونفعية وإن كان ذلك على حساب الضحايا من البشر (فالعلم ليس في منأى عن التلاعبات والحسابات السياسية الضيقة، فهناك علاقة بين الفرضيات العلمية المدعمة والسلطة السياسية والمؤسسات القائمة.) (صيام، صفحة 79)

أصبح الإنتاج العلمي يستخدم حسب نوايا وأهداف مستعمليه ومن منطلق إيديولوجي، لذلك لم يكن العلم دائماً في خدمة البشر بل تحول إلى أداة قمع واضطهاد وصراع في أيدي من وظفوه لتحقيق طموحات شخصية، (إن العلم لم يساعد على إثراء الحياة العقلية والروحية للإنسان، والمعادلة المشهورة (ط=ك×ع²) التي ترجمت في مشروع (منهاتن) إلى سلاح نووي أباد مئات الآلاف في هيروشيما وناجازاكي، كان يمكن أن تترجم إلى مفاعل لتوليد الكهرباء الرخيصة أو إلى أحد النظائر

المشعة التي تعالج السرطان.) (محمد، فلسفة العلم، العلم ومستقبل الإنسان، إلى أين، 2007، صفحة 365)

اكتسب العلم قوة بفضل السلطة وأصبح يسيطر على كل العقول وهذا بفضل تزكية رجال الدولة والمال والصناعة، فالعلم ليس عنصراً مكوناً للعقلية ولا شرطاً ضرورياً للمعقولية اكتسب مكانة افتراضية لا غير، فالعقل والمعقولية يشترطان حرية المواطن في الاختيار من الشئات المتنوع من التقاليد الموجودة في المجتمع، هكذا يدافع (فايربند) عن فكرة التعايش في المجتمع الحر، الذي تتساوى فيه جميع التقاليد دون تميز أو إقصاء وكل تقليد له دور داخل المجتمع، والعلم هو تقليد من بين التقاليد الكثيرة، فالمجتمع الحر هو ذلك المجتمع الذي يضم مذاهب وديانات وطوائف تتعايش سلمياً وفي ظل احترام متبادل.

إن غرض (فايربند) في دعواه لفصل العلم عن السلطة قائم على مبدأ الحرية، فجميع التقاليد تتطور جنباً إلى جنب داخل المجتمع الحر ولا يمكننا الدفاع عن العلم والسماح له بالتفوق دون التطلع على أشكال المعارف الأخرى التي وأن قمنا بفحصها لوجدنا فيها ما يفيد العلم في حد ذاته.

يقر (فايربند) بوجود تقاليد مختلفة ومتفاوتة التأثير داخل المجتمع فما تقدمه بعض التقاليد قد يكون أقل مما تقدمه تقاليد أخرى ليس معناه أن التقاليد الأقل عطاء تمحي وتهمش، فكل تقليد مرتبط بظرف معين وإذا ما توفرت الشروط الملائمة سوف يفسح عن إمكانياته المادية والثقافية والاجتماعية.

يتضح أن فلسفة (فايربند) القائمة على تمجيد الحرية تمتد إلى الحفاظ على كيان الحياة الديمقراطية من خلال الحد من سيطرة العلماء وتدخلهم في الشؤون السياسية، فاستشارة العلماء في الأمور المتعلقة بالبحث العلمي الذي تستفيد منه الدولة لا يخولهم اتخاذ القرار في المسائل السياسية بل الأمر يرجع للمؤسسات الاستشارية المنتخبة بصورة ديمقراطية بحيث تتكون التركيبة البشرية لهذه المؤسسات من أناس عاديين، وهذه صورة من صور التعايش بين السلطة والشعب.

لا يمكن لرجال السياسة التدخل في العمل العلمي ولن يتأتى ذلك إلا من خلال فصل السياسة عن العلم، ولا يمكن كذلك أن يتدخل العلماء في عمل السياسيين المنتخبين من طرف الشعب، يقول (فايربند): (أما أن العلم بحر يصعب سبر أغواره فذلك راجع إلى الحملة المنظمة التي يشنها عديد من العلماء للتشويش علينا ولا ينبغي أبداً أن يتردد رجال الدولة في معارضة قرار العلماء إذا ما توفر لديهم دليل على فعل ذلك، فمثل هذه المعارضة ستكون لها تأثير عظيم في تهذيب القاعدة العريضة من الشعب، ولسوف تجعل الشعب أكثر ثقة بنفسه وقد تؤدي أيضاً إلى الإصلاح) (عوض، 2004، صفحة 111)

عرفت الفترة المعاصرة تحولات عميقة وجذرية في العلم والفلسفة معاً ينبأ هذا التحول بالانفتاح على عالم اللامعقول والاعتراف بالتعدد والتنوع لمختلف الثقافات الإنسانية دون ممارسة الإقصاء باسم التحضر والتفوق العلمي والتكنولوجي.

يري (فايربند) أن التعايش بين مختلف المعارف يزيد من محتواها المعرفي، فلا يمكن تأويل التنوع والاختلاف لصالح الصراع وإنما تأويله على أنه ظاهرة ايجابية يضيف المزيد من المهارات والخبرات والتقاليد للمنظومة الثقافية الإنسانية.

إن تعايش الثقافات مع بعضها البعض يؤسس للسلم ويقوي من روابط الإنسانية من خلال مشاركة الجميع في بناء المجتمع الإنساني قائم على الحب والاحترام المتبادل، لذلك حاول (فايربند) من خلال أطروحته الحد من العقلانية العلمية التي تدعي الكونية والعالمية وتلغي كل خصوصيات التاريخية للثقافات الأخرى، لقد اكتسب العلم قداسة بفضل الترويج الغربي لكل منتجاته العلمية والفكرية.

الخاتمة:

إن العقلانية لا يمكنها أن تنحصر في خطاب محدود يدعي أنه العلم ولا في معرفة معينة تدعي لنفسها التفوق عن باقي المعارف الأخرى، فهي مجرد تقليد تختلف دلالاته من اتجاه إلى آخر تجعل أصحابها يصدرون أحكاماً متباينة مما يؤدي إلى اعتبار بعض المذاهب صحيحة وأخرى خاطئة، فكل توجه علمي أو فكري يدعي عقلانية معينة أو يدعي

امتلاكه الحقيقة المطلقة يؤدي حتما إلى خلق نوع من التوتر و اللامعاشية مع توجهات أخرى وينطبق ذلك على السياسة والعقائد و الطوائف وهذا ما أوجع صراعاً وصل لأحد الاقتتال. لذا يجب على العقلانية وكل التوجهات في جميع المجالات أن تكون متفتحة بطبيعتها على الحوار الدائم مع الواقع والحياة والأفكار في حركة ديناميكية من التبادل الحر تفتح مجال التحوار و التعايش مع كل التقاليد الاجتماعية. يمكن القول أن العقلانية بمفهومها الكلاسيكي هي نتاج مركب حاصل بطرح إيديولوجي لمفهوم العقل، تم تشكيله طبقاً لتصورات مسبقة مثلتها عقلانية عصر التنوير والعقلانية العلمانية الدوغمائية التي سادت القرن التاسع عشر برسمها حدود فصلت وبشكل قاطع بين المعقول واللامعقول.

أصبح اليوم من الضروري إقحام التصورات اللاعقلانية للإنسان واعتماد القيم النفسية والاجتماعية والعقائدية داخل الدراسات العلمية والاهتمام بها، لعلها تفتح آفاق جديدة تمكن الباحثين من الكشف عن أسرار العالم الخفي، عالم الروح والنفس وما وراء الطبيعة.

يتضح أن ما جاء به (فايربند) من موقف إنساني يتماشى مع التصورات المعاصرة في الفلسفة، متناغم تماماً مع فكر ما بعد الحداثة التي ترفض تقديس العلم على حساب قيم الإنسان، بل تجعل العلم يسير في سياقه الإنساني، ويبقى أي عمل إبستمولوجي غير مكتمل ما لم يحترم الإنسان وتحترم الأسس الثقافية، فالعلم ليس نتاج لمجهود العلماء فقط، بل تتداخل فيه قوى المجتمع وعناصره الثقافية.

قائمة المراجع بالعربية:

1- ادغار موران: من أجل عقل متفتح، نقلاً عن : محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي: دفاتر فلسفية، نصوص مختارة، العقلانية العلمية وانتقاداتها، دار توقيال الدار البيضاء، المغرب، ط2004م

2- إيان هاكينج، الثورات العلمية، كيف ندافع على المجتمع ضد العلم، ترجمة وتقديم السيد نفاذي، دار المعرفة الجامعية، (د ط) 1996م.

- 3- ألان شالمرز، نظريات العلم، ترجمة الحسين سبحان وفؤاد الصفا، ط1، دار توقيبال للنشر، المغرب، 1991م.
- 4- يحيى الرخاوي، مراجعات في لغة العلم، دار المعارف، (ب ط)، 1997م.
- 5- عبد الفتاح بدوى محمد، فلسفة العلم، العلم ومستقبل الإنسان... إلى أين، دار قباء الحديثة، للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة (د ط)
- 6- عادل عوض، بين نسبية فيرايند وموضوعية شالمرز، ط1 دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر، الإسكندرية، 2004م.
- 7- سمير أبو زيد "من الحتمية إلى القدرة على الاختيار نحو صياغة للنموذج اللاميكانيكي الجديد للطبيعة
- 8- سامي خشبة، مصطلحات فكرية، الجزء الثاني مصطلح تضافر تكامل، الهيئة المصرية العامة، للكتاب (ب ط) (ب ت).
- 9- شحاتة صيام، علم الاجتماع المعرفة والصراعات التأويل، دار ميريت، القاهرة، ط1، (ب ت)
- 10 - موسي كريم، فلسفة العلم منة العقلانية إلى اللاعقلانية، دار الفارابي، بيروت لبنان، ط1، 2012م.
- 11- صلاح قنصوه، فلسفة العلم، دار قباء للطباعة والنشر للتوزيع، القاهرة، (ب ط) 1998م.
- 12- فيرايند بول، العلم في المجتمع الحر، ترجمة السيد نفاذي وسمير حنا صادق، المجلس الأعلى للثقافة، مصر (ب ط)، 2000م.
- 13- فيرايند بول، ضد المنهج، ترجمة ماهر عبد القادر محمد طبعة للطالب الإسكندرية 2005م.
- 14- فيرايند بول، ثلاث محاورات في المعرفة، ترجمة محمد أحمد السيد منشأة المعارف، الإسكندرية، مقدمة المترجم، (ب ط) (ب ت).

¹⁵- Feyerabend Paul ; philosophie de la nature ; tra de l'allemand par Matthieu Dumont et Arthur Lochmann ; édition du seuil ; paris

¹⁶- Paul Feyerabend, contre la méthode, Esquisse d'une théorie anarchiste de la connaissance, 1975, trad. b. Jurdant et A. schlumberger, Seuil, points Sciences, 1988.

الناصرية

الناصرية